بعض مشاكل الأسرة المصرية

للأستاذ فايد العمروسى

فى الأسر المصرية عامة كثير من الاضطراب فى توجيه سياسة التربيـة المنزلية ، تلك التربية التى يقوم على أساسها المجتمع العـام ، والتى تنشئ الأجيال بعد الأجيال .

وهى اضطرابات أوجد بعضها روح العصر الذى نعيش فيه وتطور الزمن الذى يصيب كل هيئة وكل مجتمع أو أمة بنسب مختلفة ومقادير متفاوتة .

والأسرة المصرية إما ريفية و إما مدنية :

أما الريفية فانها لا تزال سليمة الوحدة قوية البنـاء ، رابطة الدم فيها محفورة بسياج من التحمس والكرامة . بل ورابطة الانسانية فيها لا تزال ملحوظة بأكرم أنواع الاهتمام ، محوطة بكثير من نوازع الخير .

وتعليل ذلك واضح كل الوضوح ، ذلك لأنها أسر حالفت الطبيعة وعاشت فى كنفها فلم تتسرب اليها مفاسد المدنية ، فعاش أفرادها على التضامن والتفاهم والقناعة والبساطة .

أما الأسر المتمدينة فبعضها مسرح لتلك الاضطرابات الاجتماعية التى تؤثر فى تربيـة الناشئة وتطبعهم بطابعها ، ولهذه الاضطرابات أسباب أصيلة وأخرى عرضية ، فمن الأسباب الأصيلة عدم تكافؤ الزوجين ثقافة أو اجتماعا وهو منبع الكثير من أمراض الأسرة ، وما كان الشرع الشريف الا أحكم الحكماء فى اشتراط التكافؤ بين الزوجين ، ذلك التكافؤ الذى يقوم عليه التمازج والتناسق والتفاهم فى الحياة العائلية السعيدة ، وان بعض المآسى التى نراها ونسمع عنها كل يوم لهى أثر سيئ لهذا التفاوت ، وهو أثر يقوض أسرا ويهد بيوتا ، فتفاوت الثقافة بين الزوجين صراع بين عقليتين أحداهما مهذبة مستنيرة ، والأخرى قاصرة محدودة ، ولن يتفق عنصران أحدهما رحب مفكر والآخر ضيق مكتوم .

والتفاوت أيضا فى المكانة الاجتماعية سبب من أسباب هذه الشرور ، ذلك لأنه صراع بين قوتين متفاوتتين لا بد أن تتغلب احداهما على الأخرى فيكون هناك غالب ومغلوب ، وان يتفق غالب ومغلوب فى الحياة على تكوين أسرة فما بال أسرة فيها أطفال ولها كيان يجب

أن يدعمه دستور من الوفاق والتجاوب والاطمئنان . وعدم التكافؤ بين الزوجين واقع بكثرة فى بيوتنا المصرية ، وآثاره محسوسة تفيض بها الأخبار والأحاديث وتتكون منها قصص المآسى والآلام ... وانها لجناية اجتماعية — غير مقصودة — تقع من معتدين على أطفال وأبناء ليس لهم فى هذا ولا ذاك إثم ولا تدبير .

هذا وليس لدينا من التشريع أو القوانين مايمنع وقوع مثل هذا الزواج الا اذا بدا من أحد الطرفين ميل إلى النزاع ، ولن يستطيع المصلحون أو الباحثون فى نظم الاجتماع أن يحولوا بأقلامهم أو بحوثهم دون وقوع هذه الكوارث ، ولكن الأمل الوحيد فى تفاديها أو التقليل منها هم الراغبون فى الزواج أنفسهم ، فالتفكير المنظم والرويه والتعقل وبعض من التجارب والعبر كل هؤلاء رادع أو موقظ لراغبى الزواج أن يتأملوا وأن يحسوا الفوارق السحيقة التى سيصطدم بها الزوجان غير المتكافئين ، وعندئذ يحلق كل فى سمائه ، ويهبط كل فى واديه .

وبعض الأطماع والشهرة والانتفاع والتمسح يكون داعيا إلى رابطة زواج كهذا : ولو علم كلا الزوجين معنى الزواج وفهم روحه وتعقل رسالته ، لتنازل عن بعض أطماعه ، ورغب حيث يكون موضعه من المجتمع وموضع المجتمع منه .

ومن الأسباب الأصيلة التى تنشأ عنها مشاكل الأسرة المصرية :

اختلاف ميول الزوجين : وهذا الاختلاف تبدو مظاهره فى كل شىء فى المنزل ، فى ترتيب الأثاث وفى الملابس وفى إعداد الطعام وفى اختيار المناسبات الخاصة بالتنزه والتزاور ثم فى تكييف العلاقات بينها وبين الأسر الأخرى وأخيرا فى لغة الأحاديث وطرق التفاهم والاختلاف فى واحد فقط من هذه المظاهر كاف لتحطيم بناء الأسرة وتقويض دعائمها وليس من شك فى أن اختلاف الميول بين الزوجين راجع لطبيعة التربية الأولى لكل منهما ، أو لعدم تجانس الطباع وتباين الأحاسيس المختلفة ، أو لتفاوت بين المواهب الذهنية أو النفسية ، وقد كانت هذه الأسباب أعذارا لها قيمتها فى فشل الحياة الزوجية حين كانت المرأة مكبلة فى سجنها ، وحين كان محرما أن تتعرف إلى شريكها فى الحياة وتقف على كثير من خصائصه ، أما الآن فقد أبيح هذا — إلى حد معقول — فى بعض الأسر المصرية ، فلم يبق عذر لواحد من الزوجين إذا هو لم يوفق فى الاختيار !

ومع مانحن عليه الآن من إباحة تعرف الرجل إلى شريكته والشريكة إلى شريكها فإن نسبة التوفيق فى اختيارنا قليلة جدا بالنسبة إلى توفيق غيرنا من أبناء الأمم الأخرى الذين أخذنا عنهم هذا التقليد ، ولن أستطيع تعليل هذا إلا بأن حاسة التمييز عند معظمنا معدومة أو ناقصة ، وموهبة الإدراك أو الفهم قاصرة أو مظلمة ، وقد لايكون هذا أو ذاك ، ولكن نظر الرجل إلى من يختارها شريكة له نظر شائع سطحى يتعلق بالظواهر ! لذا نجد فيها

دون التأمل فى الحقيقة والجوهر ، وأنه نظر وقتى تشبعه عوامل الإغراء الجسمى الحاضرة فتعميه عن النظر الى المستقبل وعن هدفه الخالد كأب سيكون له أولاد هو مسؤول عن رعايتهم وتقديمهم للمجتمع رجالا عاملين أو نساء صالحات .

فاختلاف الميول بين الزوجين من أهم أسباب الاضطراب فى المنزل المصرى ، ومن أدق المشاكل الظاهرة التى تنغص حياة الأسرة وتنذر بانحلالها .

ويمكن تفادى هـذا السبب بالتعرف كما قلت ، وإلا فبالاعتماد على تكافؤ منزلة الزوجين .

كذلك من الأسباب الأصيلة فى اضطراب الأسرة المصرية وتطرق الفساد إليها تعدد الزوجات وهو أمر مشروع للرجل طالما هو قادر على نفقتهن ، وطالما هو عادل بينهن ، والتعدد مع فقد واحد من هذين الركنين غير مشروع ، ولن يزعم زاعم أن الشرطين متوافران فى كل من تعـددت زوجاته ، إذن انثمت كثيرون تعددت زوجاتهم فكثرت أولادهم وهم عاجزون عن النفقـة لكل هؤلاء ، وإذن فهنـاك كثيرون تعددت زوجاتهم وفقدوا العدل بين هؤلاء الزوجات ، فماذا صنع هؤلاء وهؤلاء ؟

فالأولون أنتجوا لنا نسلا جائعا مشتتا ، لا نصيب له من الصحة ولا الثقافة ولا العمل ، ونسل كهذا فقد هذه الصفات لا يمكن أن يكون أسرة واحدة لها تضامن أو تفاهم ، أو لها منهج خاص فى الحياة يسلكونه لغاية شريفة ، ولدينا من أنواع هذه الأسر المفككة التى يجهل بعضها الآخر شىء كثير ، والآخرون غير العادلين أنتجو لنا بيوتا غضت بالأحقاد والتنافر والمشاكسات كأنهم أعداء : وكأنه لا رابطة بينهم من الدم تربطهم ، ولا صلة تجمع بينهم وتؤلف قلوبهم . وتلك أيضـا " فواتير " أو أنواع من الأسر المصرية تعيش هكذا متنافرة لا يعرف بعضها البعض ، ويظل هذا الروح سائدا ومنتشرا فى الأبناء وأبناء الأبناء .

ونظرة واحدة فى تطبيق شريعة الله وسـنة رسوله كافية للقضاء على هـذا الاضطراب وكفيلة بأن تنفذ مشروع التعدد بدواعيه وحكمته وشروطه التى نعرفها فلن يكون هناك هذا التخبط الذى ينتج لنا أمثال هذه الأسر التى إن لم تضر المجتمع — بوصفها الذى ذكرته — فهى من المؤكد لن تفيده فى شىء .

والرجل ذو الأولاد يتزوج من غير امرأته فى حياتها أو بعد وفاتها ، والحالة الأولى هى التعدد وقد ذكرتها ، والثانية أمر كثير الوقوع ، ولن يستطيع أحد منعه فهو جائز ومقبول عقلا ودينا ، وهو واقع فى أوساطنا المصرية بنسبة كبيرة جدا ، والنادر منـه ما يفلح ، والغالب منه مايخفق ، وعلى كياسة الرجل وتبصره واهتمامه برعاية أولاده يتوقف نجاح هذا الزواج فتسير أموره كأن لم يفقد أم أولاده ، وكأن لم يتزوج من جديد . وهذا نادر لايقاس

عليه ، وإنما الشائع فى حياتنا هو ما تحتمه الطبيعة من فشل زواج الرجل ذى الأولاد بعد وفاة أمهم ، ذلك الزواج الذى يفتح حياة جديدة بألوان خاصة للرجل وأولاده ، ولن يغيب عن أذهان أقل المفكرين مافى هـذه الحيـاة من متاعب ومقاساة تلك المتاعب التى تسبب للأسرة اضطرابا وقلقا ، وتسير السفينة فى مجرى غير مجراها الطبيعى و إن كان هناك بعض مما يفجع الرجل فى هدوئه ونظامه فليس هذا إلا جزءا يسيرا جدا مما يصيب أولاده المساكين فى حياتهم الحاضرة والمستقبلة .

وأمثال هذه الحالات فى الأسر المصرية كثيرة ، ومشاكلها لاتخفى على أحد ممن خبروها أو شهدوها أو سمعوها بمآسيها ، وليس لهذا علاج أكثر مما يملكه الرجال من عزم وتدبير ومن بذل بعض التضحيات الشخصية ثمنا لحفظ كيان أسرهم واعتزازا لأبنائهم ورعاية لحاضرهم ومستقبلهم .

والمرأة ذات الأولاد تتزوج بعد وفاة زوجها أو بعد فراقه من رجل ذى أولاد أيضا ، وهذه مسألة ذات مشكلتين ، فالأولى : ترك أولاد فى يد الأقدار ، وقد فقدوا آباءهم أولا بالموت ، ثم أمهم ثانيا بالزواج ، والثانية : ترك أسرة ألفتها الزوجة وامتزجت بها إلى أخرى تحاول فيها الألفة والامتزاج من جديد ، وفى كلا الأمرين فقد أسر وهدم معائش وتخريب عمران ، وتلك أمور كلها — لاشك — مشاكل قائمة بين الأسر المصرية ليس فيهـا إلا تعكير صفوها وتكدير سعادتها ، وقد يخفف من كدر هـذه المشاكل أن يفهم المتزوجون والمتزوجات من هذا النوع أن الزواج وسيلة لغاية شريفة هى تكوين الأسر الصالحة للشعب وأن التهاون فى رعاية هـذه الغاية جريمة وطنية قبل كل شىء ولن تكون هـذه الرعاية إلا بتضحيات غالية يبذلها الأفراد حرصا على كيان الأسرة وتأدية لحق المجتمع .

واعتداد الزوجة بشخصيتها من الأسباب العرضية التى تسبب اضطراب الأسرة المصرية وتفسد استقامتها ، والشعور بالشخصية فى ذاته أمر عظيم محبوب ، حتى ان المرأة التى تفقد شخصيتها غير صالحة للأمومة البتة ، غير أن بعض النساء يخلطن بين الاعتداد بالشخصية و بين المكابرة والتشبث ولا يفرقن بين العظمة الطبيعية للشخصية و بين التعاظم والادعاء والاعتداد الذى تواجه به الزوج زوجها يسبب نوعا من الإقلاق والتنافس والمعارضة ، وكل هذه أمور تضايق الرجال ذوى الشخصيات أيضا ، وقد تنجح الزوجة فى فرض شخصية معارضة لزوجها فيصبح فى المنزل رجلان أو قل قوتان متعارضتان تصطدم إحداهما بالأخرى فى كل وقت وحين ، وقد تحتدم مظاهر هذه المعارضة فى حديث على مشهد من الأطفال فتنطبع فى أذهانهم صورة من هذا الاحتدام و بعيد أن يمحوها الزمن ومرور الأيام .

هذا جو غير صالح لإسعاد المنزل أو راحته ، وغير صالح لنمو الروح الطيب الهادئ الذى نعمل على إيجاده فى محيط الأسر ليشب النشء فى بيئـة جديرة بتهذيب عقله ونفسه معا ،

ومظاهر هذا الاعتداد فى بعض الأسر المصرية واضح كل الوضوح بحق و بغير حق ، ولعل هذا أثر من آثار سموم التقليد الضار الذى تسرب الينا ، أو لعله مظهر من مظاهر التطور الحديث الذى نسميه بعصر الحضارة والحرية والنور ، وعلى أنه هذا أو ذاك فهو داء عقيم فى البيت المصرى ، والقضاء عليه هو أن يفهم كل من الرجل والمرأة وظيفته و إلا فسيخطئ مكانه من صاحبه .

و إهمال الزوج رعاية منزله من الأسباب التى تخلق المشكلات فى الأسرة ، ولست أقصد بالإهمال التقصير فى النفقات أو الإغضاء عنها فهذا النوع من الإهمال أقل من أن يتكلم فى شأنه إنسان ، و إنما أعنى الإهمال فى الحقوق الأدبية التى هى ألزم للأسرة من حق الشراب والطعام .

كثير من الآباء تضطرهم شواغل الحياة ألا يروا أبناءهم رأى العين إلا مرة واحدة فى كل أسبوع ، وكثير منهم يفعلون هكذا لأن أعمالهم تستغرق نهارهم ، وأحوالهم الخاصة من زيارات أو نزهات تستغرق ليلهم ، وهكذا دواليك النهار يسلمهم لليل والليل يسلمهم للنهار فيعيشون فى منازلهم غرباء عن أولادهم ، وأولادهم غرباء عنهم ، وهنا تجسم الوحدة وتجثم الوحشة فى جو المنزل وتخيم الكآبة فى جوانبه وتتسرب السآمة والملل الى كل من فيه ، ومن هذا التصرف يولد الداء و يستفحل ثم يستأصل حتى يميل كل جميل الى قبيح ، وكل هدوء الى ثورة واضطراب .

هنا فى المنزل زوجة ترقب شريكها لتطلع عليه بالبشر والهناء وهنا أولاد ينتظرون آباءهم ليطلعوا عليه بالفرح والبهجة ، وليبشروا فى نفوسهم الأمن والإيناس ، واذا ما فقدت الزوجة وأولادها هذه الرعاية ناما فقدوا أعز سعادتهم وأعلى هناءتهم ، واذا فقدت السعادة أو ما يشبهها أطلت المشكلات على الأسر برءوسها السوداء .

على ضوء هذه الحقائق وهى ثابتة لاجدال فيها يمدنا الخدم بالنشء الحديث الذى ماورثوه عن آبائهم وأمهاتهم إلا ميراث الدم فحسب أما الميراث المكتسب من الأقوال والأفعال وهى المظاهر الأولى التى تنفتح عليها عيون الأطفال فهو من خزائن الخدم واشباههن ، وهذه المظاهر هى ما تكون فى الأطفال طبائعهم الأولى ، وهى ما تلون غرائزهم بألوانها ، وقلما تمحو التربية المدرسية أو الاجتماعية صفات اكتسبها الأطفال فى أدوار التكوين والنمو .

ومما يزيد هذه المشكلة شناعة أن الخادمات كثيرا ما يشرفن على هؤلاء الأطفال فى التوجيه والرعاية لا فى اللعب والتسلية فحسب فيشب الطفل وهو لا يعرف غير خادمته لأنه لا يرى فى المنزل سواها ، أو لأنه يراها أكثر مما يرى أمه وأباه .

هذا وليس لهذه المشكلة من حل سوى أن نقول للآباء والأمهات ، هذه منازلكم فارعوها ، وهؤلاء أولادكم أنتم وليس لكم فيهم نصيب أو حق بقدر ما للأمة والوطن وعليهم من ديون وحقوق .

ومن الأسباب أو العيوب التى نتجت عنها بعض المساوئ فى الأسرة المصرية فقدان روح المجاملة بين أفراد الأسرة ، والمجاملات النفسية أو الأدبية هى أسمى أنواع المجاملات التى تلين قسوة الطباع وتهذب الشراسة وتطوع الجموح ، بل ان المجاملات لتخلق النفوس وتهز القلوب فتخفق بالود والاخلاص وتفيض بالرقة والتعاطف .

ولكن مما يؤسف أن روح المجاملة هذه مفقودة فى بعض أسرنا ، وأن أفرادها يعيشون بعضهم غريب عن البعض الآخر ، وأن فى نفوسهم ما يمكن أن يسمى جفاء أو فراغا ، وقد يكون للتقاليد المصرية القديمة ولا سيما الريفية منها بعض الأثر فى إنزواء كل فرد من الأسرة عن أخيه واستقلاله بنفسه وتكتمه فى كثير من الحيية والحياء ، وأصحاب المذاهب التقليدية يرون هذا احتشاما وأدبا ، والتربية الحقة أو الاجتماعية على الأقل تراه نقصا وعيبا ، بل تراه من المشكلات الرديئة الجديرة بالعلاج لضمان الثقة بالأسرة والارتفاع بشأنها من وجهة التربية الاجتماعية على الأقل ، مسئولية الآباء والأمهات فى هذه المشاكل .

هذه بعض مشاكل الأسرة المصرية أو بعض عيوبها فى عرض خاطف سريع ، وهى كما نرى أثر من آثار التربية المنزلية التى هى أولى مسئوليات الأب والأم فى المنزل ، والأب والأم هما الطابع الأصيل الخالد فى نفوس الأبناء وتربيتهم ، وان ذلك الطابع ليمحو كثيرا مما يكتسبه الابن من الصفات أو الأخلاق فى محيطه الخارجى عن منزله ، وكل مشكلة من هذه المشاكل أساسها الآباء والأمهات وهدفها الأبناء ، ولا يمكن بالدقة تحديد مسئولية كل من الأب والأم فى خلق هذه الصعوبات إلا على طريق التقريب .

فايد العمروسى